



محمد حسن فتحي

فيلسوف



المكتبة الصغيرة



٣٢

المكتبة الصغيرة

٣٢

فيلسوف

محمد حسن فقي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

يوليه ١٩٨٠ م

شعبان ١٤٠٠ هـ

اللوحات والغلاف من اعداد الفنان : بيار صادق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة لا بد منها ..

حينما طلب الي أخي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، أن أشارك في (المكتبة الصغيرة) بشيء من انتاجي .. بعثت اليه بمجموعة ، مما استطعت العثور عليه من مقالات كنت أنشرها في الصحف المحلية تحت عنوان (فيلسوف) .. وان كنت لم أستطع أن أستخرج منها الا القليل ..

ولقد كنت بدأت في كتابة هذه المقالات منذ أكثر من عشرين عاماً بجريدة (البلاد) وأدرتها على بعض الجوانب الحيوية التي تهتم بها كل أمة حية ، عريقة ونامية من سياسية واجتماعية وفكرية وأدبية وما الى هذه الجوانب التي لا بد لها من الحوار بين أرباب الأقلام ليمهدوا السبيل لحياة أفضل ولن يتأتى الوصول الى هذه الحياة المثلى بقدر ما يستطيع البشر أن يصلوا اليه الا بمثل هذا الحوار الحر الصريح ..

ومنذ سنوات قلائل ، طلب مني الكثيرون من أصدقائي ، وقراء هذه المقالات الأقدمين - طلبوا اليّ بالحاح ، أن أعاود

كتابتها ، فاستجبت لرغباتهم وعادوت كتابتها لعل أن أسهم بجهد ضئيل في خدمة أدبنا الحديث وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا بقدر ما يستطيع جهدى الأدبى المتواضع أن يصل اليه .. فلئن كان في نشر هذه المقالات ما يستحق اللوم والتنديد ، فاننى أنا وحدى المسؤول عنه .. ولئن كان فيها غيـض من فيض أدبى لا يكاد يبـلـ الغليل ؛ فان الفضل فيه بعد الله لأخى الأستاذ الرفاعى .. سدد الله خطاه وضاعف من عونه لخدمة الأدب والثقافة فى بلادنا بما يقدمه اليها باستمرار من أياد بيض لا تنكر . والله من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل ٢

محمد حسن فقى

انقطع الشيخ عن مريديه حيناً من الدهر
فانقطع عنهم بانقطاعه ذلك الفيض الغزير الذى
كان يغمرهم به فى محاوراته معهم .. من علم
وفلسفة .. وآداب وفن وما اليها مما تكتظ به
عقول العباقرة وأحاسيسهم فتحملهم حملاً لا قبل
لهم بمقاومته على التنفيس عنهم بالافضاء والحوار
وتقليب شئون الحياة على كافة وجوها للاستنباط
منها واستخلاص زبدتها ومعرفة الجيد من الردىء
والنافع من الضار .

هكذا كان شأن الشيخ فهو بحر لا حدود له ولا
قرار ، أو قل عنه انه محيط تتقاصر عن ادراك
حدوده وأغواره النفوس والأبصار ، لم تكن له
مؤلفات ولكن محاوراته لو انها سجلت ثم جمعت
ثم طبعت فى أسفار لكان له منها العشرات التى

تمتع وتفيد ، وتسهم فى دفع عجلة الحضارة والتطوير
دفعاً قوياً متمكناً ، وكان الشيخ يأبى هذا كل الالباء
ويقف فى سبيل تحقيقه حين يفكر فيه مريدوه
وحواريوه قائلًا انها مجرد أفكار وخواالج لا تستحق
كل هذا العناء وجدير بنا أن لا نصدع بها رؤوس
القراء وأن نترك لهم ما يجدونه من فراغ ليقرأوا
ما هو أعود عليهم بالمزيد من التثقيف والتنور ، ثم
يستطرد الشيخ فيقول انها مجرد أحاديث عن الروح
والفكر والضمير ..

ولعل عصرنا هذا وأبناءه لا يميلون اليه بعد
أن استفرقتهم المادة وقعدت لهم بكل سبيل . وبالتالى
لا يتمثلونها ولا يهضمونها . فما بالنا نفرض هذا
عليهم فرضاً ونكرهم عليه اكراهاً .

ويحاوره مريدوه حواراً جاداً هادفاً فلا يزداد
الا اصراراً على رأيه واستمسكاً به ، فيمنعهم أدبهم
مع الشيخ واكبارهم له أن يتمادوا فى الجدل والحوار
وهم يعرفون منه العناد الشديد فى الثبات على
آرائه وعدم التزحزح عنها قيد شعرة . وهو فى

هذا الثبات كالطود الشامخ قوة وصلابة واعتداداً
بالرأي واقناعاً به حتى ليوشك مريدوه أن يظنوا
بأنفسهم الخطأ أمام حججه الدامغة .

ولعل الشيخ فى زمننا الحديث هذا أشبه
بسقراط الحكيم زعيم فلاسفة الاغريق القدامى
فلقد خلف تلاميذه أسفاراً من الحكمة مشعة وما تزال
تحتفظ بأشعاعها الى يومنا .. وما تزال تدرس فى
الجامعات الحديثة ، فيجد الناس فيها متعة وطرافة
وعمقاً ونضجاً ، وما زالوا يفيدون منها كما يفيد
السارى فى الظلماء بنبراس متوهج .. أما سقراط
الرأس والزعيم ، فانه لم يخلف مؤلفات مكتوبة ولكنه
خلف أجيالا من الحكمة والفلسفة فى نفوس وكتب
أتباعه منذ عشرات القرون حتى اليوم .. يدينون
له بالفضل ويعترفون له بالسبق فكأنهم التلال
المحيطة بالجبل الأشم .

كان انقطاع الشيخ عن مريدويه لمرض ألمّ به
فأقعده عن البحث والحوار وان لم يقعد عقله الفذ
عن التأمل والتفكير واكثر أولئك المريدون لمرض

الشيخ اكثر ارباً حازباً ، وخافوا عليه خوفاً مذهلاً ، الا أن الشيخ كان أثبتهم جناناً وأصلبهم عوداً فكان هو المستخف بأوجاعه وكان يقول لهم : انه مجرد عارض بسيط لا خطر فيه ولا خشية منه فما بالكم مكتئبين ولهذا العارض - ككل ما يلم بنا في حياتنا من سوء - من النفع بقدر ما فيه من الضرر .

انه ليحملنى أكثر مما تحملنى الصحة السابقة على مزيد من التأمل والتفكير والبحث والتقصي فأجد في هذا العزاء والسلوى ، بل لقد أجد فيه الغبطة والارتياح .. فما يقوى المریدون على الحجاج وما يملكون الا التسليم أمام منطق الشيخ المتسلط الذى لا يقاوم .

وجاء يوم تمالك الشيخ فيه قواه واسترد صحته بعد فترة استجمام كانت حافلة بالتأمل العميق والتسليم المذعن للقضاء فقد كان الشيخ يرى ان من الحكمة هذا الازعان المستسلم أمام مشيئة القوة العليا المسيطرة على هذا الكون بكل ما يدب فيه من أحياء وما ينبث فيه من كائنات . وكان يرى ان هذه

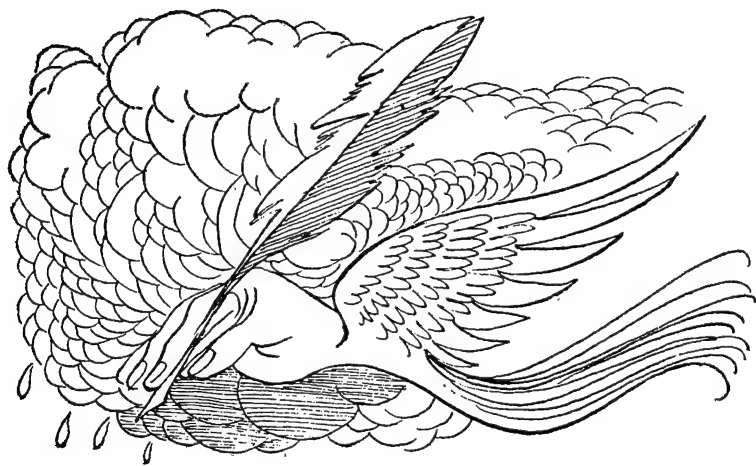
المشيئة العليا انما تمتحننا بما تصيبنا به من محن
وارزاء لنخرج منها ونحن أصلب عوداً وأقوى
ارادة وأعرق ايماناً .. ففي حرمانها عطاء ما ينبغي
لنا أن نتجاهله أو نجحده بحال .

واغتبط المريدون اغتباطاً شديداً بعودة الشيخ
الى حلقاته وبتحلقهم حوله كما تتحلق الهالة حول
القمر فيفيض عليها وعلى الناس من اشعاعه ما ينير
أمامهم السبيل .. كان للشيخ فى نفوسهم منزلة
الاعجاب والتقديس . وكان هو أهلاً لما هو فوق ذلك
قولا وعملا . فلقد كان شديد الزهد فى الدنيا ..
شديد المقت للحطام ولا سيما حينما يأتى من روافد
غير مشروعة فكان لا يرى مجداً الا فى العالم العامل
وفى الخلق الرفيع .. وفى الايثار والتضحية ..
وكان عاشقاً للخير والجمال متغنياً بهما فى السر
والعلن . وكان سخي اليد على املاق فهو وجود بما
يستطيع وكأنه يأخذ ولا يعطى فتراه متهللاً بالبذل
يحس منه بلذة وامتناع ويرى للأخذ منه منة عليه

لا له . فكان حب مردييه له قائماً على أسس وطيدة
لا تززعها الأحداث ..

ومع علم الشيخ الذى لا يجارى فقد كان شديد
التواضع شديد الحياء . فهو يجرد نفسه من كل
موهبة وعلم وينسبهما الى السوى فتحس منه وهو
ينسبهما الى السوى بحرارة الصدق والاخلاص فيما
يقول ، وحمادى القول فيه انه كان مثالا رائعاً
للمرجولة والانسانية . وللعلم والخلق . فلا عجب
حين يحبه مريدوه كل الحب ويكبرونه كل الاكبار
ويجلسون اليه فى أدب وسكينة .

اذن فلقد عاد شيخنا سيرته الأولى فكان لهذه
العودة صدى عميق فى نفوس تلاميذه الكثر ،
وكان بين هؤلاء تلميذ موهوب شديد الذكاء حتى
ليوشك أن يكون أحد النوابغ على حداثة سن وطيب
احدوثة ، فكان الشيخ يتنبأ له بمستقبل مضى مدوّ
ويحبوه من عطفه وحده ما تستحق مواهبه ومثابرتة
ولقائته . وكان لداته يرون هذا من الشيخ ومن



الزميل فلا يعجبون لما لا يستدعى العجب . فالذكاء يجتذب الذكاء ويرعاه ويحاول - اذا ما كان على مثل ذكاء الشيخ - أن يجعل منه خليفة له اذا ما ارتحل عن هذه الحياة الى الحياة الأرحب والأخلد وهذه هى سنة الحياة لا محيد عنها ولا مهرب منها للنفوس الواعية والعقول الحصيفة .. وبلغ من اعجاب الشيخ بمريده هذا أن يجعله يعيد من محاوراته لاخذانه حيناً ويفسر لهم ما غمض منها حيناً آخر فهو بالتعبير الحديث كالمعيد فى الجامعة .

ولقد كان انقطاع الشيخ عن الحوار بسبب مرضه حيناً من الدهر .. حافزاً لمريديه على ادخار العديد من الأسئلة العويصة فى شئون الكون والحياة والاحياء لشيخهم حتى اذا ما شافاه الله انهالوا بها عليه فكان - كما يعهدونه - غزير المعرفة مرهف الحس واسع العقل متعدد جوانب الثقافة فى رحابة وعمق .. كان يجيبهم ويفسر لهم ويحاورهم وكأنما هو السائل لا المسئول حتى

يصل بهم الى شواطىء الحقيقة التى يبحثون عنها
باهتمام وولع شديدين .

قال مرید الشيخ الأثير لشيخه وهو يحاوره :
لقد أحدث غيابك عنا فراغاً مضمياً وان لم تغب
عنا بروحك وفكرك .. وان لم نغب عنك نحن
مریديك بالمأم من الزيارات الخفيفة التى لا تثقل
على شيخنا المتوكل .. أما وقد شاء الله ان نعاود
لقاءاتنا هذه الممتعة فننهل من العذب المستطاب حتى
نبلى الصدى الذى لا يروى فقد سنحت لى الفرصة
لأنفس عن نفسى بسؤال أثقل عليها ولم تجد الى
الجواب السديد عليه من سبيل . ولقد أرجأته راغماً
الى لقائنا هذا . وما يزال يلح علي الحاحاً شديداً
وما زلت أطاوله حتى لقيناك فهل لشيخى أن يمتعنى
واخوانى بجواب عليه ؟! قال له شيخه وهو ينعم
النظر اليه حتى ليكاد يصل الى أغوار نفسه المتحجبة
فيعرف السؤال قبل أن ينقله اليه السائل .. ثم
ينعم النظر اليه كرة أخرى فيرى من مخائل النجاة
والرجحان ما يثلج صدره بمريده الأثير .. قال

له : فأننى لمصغ اليك بسمعى وبجوارحى فهات
سؤالك يا بنى فلعل الله أن يفتح علي بجواب رشيد
عليه .. قال: فأننى ليعتلج بصدري منذ حين سؤال
عنيد عتيد .. عن الخير والشر وعن الحق والباطل .
وعن العقل والحس وعن الجمال فى شتى صورهِ
وهياكله . وعن السعادة والفن فأوفق حيناً وأخفق
أحياناً . ثم أعود فأرجع على عقلى القاصر باللائمة
ان لم يستطع أن يسلط مصباحه على هذه المعانى
فيجلوها لبصيرتى ولبصرى جلاء أطمئن اليه ..
ثم عدت فقلت لعقلى : أيها العاجز صبراً فأننى
لشاك الى شيخنا ما لقيته منك من اعياء وكلال ..
ومن عجز وتقصير .. واننى لعارض عليه سؤالى
هذا ليضعك فى مكان تشرف منه على الحقائق من
قريب .. وليجلو هذا الصدا الذى يحجب عنك
رؤيتها فلا تستطيع الا التأرجح بين حق وباطل
لا تستقر منه على قرار .

قال له الشيخ : أفترى يا بنى ان عقلك هذا
طلّعة ما يستريح حتى تتفتح له المغاليق .. وان

نفسك قلقة ما تطمئن حتى تسبر أغوار الحقائق
وتصل الى لبابها بعد أن تنضو عنها القشور ..

واننى لمعجب بهما أشد اعجاب وواثق انهما لن
يرحاك أبداً من هذا التطلع والقلق المقدسين
فبارك الله لك فيهما وأسبغ عليك وعلى أخوتك من
آلائه ما تصلون به الى ما تصبو اليه عقول الحكماء
مما يمكن أن يصل اليه البشر بما وهب الله لهم
من فضله .. أما الكمال المطلق فهو له سبحانه وحده
ولن يخطر باخلادنا قط ان نحاوله والا كنا من
الحماقة بمكان .

فأما الخير - يا بني - فهو ان تروض نفسك
على انتهاج أقوم السبل وان تكن أوعرها وأكثرها
رهبة ومشقة .. انك بذلك - ان استطعته - وهذا
ليس بالقليل تحسن الى نفسك أوفى احسان كما
تحسن الى الحياة والاحياء بنفس هذا المقدار الطيب
انك به ستتقبل الأذى والاساءة والعقوق وكل
ما يتحدى ويجرح . تستقبله بصدر رحب ونفس

مصطبرة ما دامت كرامتك بمنأى عن التحدى
والتجريح فلن يقبل المساس بها الا حقير .

وأما الشر فهو أن تسلك الخط المضاد وهو أهون
الخطين وان يكن دنيئاً .. ان الناس - يا بني - وان
دلت مظاهر الكثيرين منهم على التحرش والاستبداد
ومحاولة القهر والاضطهاد .. فانها مجرد مظاهر
لن تلبث أن تتحول الى النقيض بشيء من الترفق
والاناة .. ان في كل نفس - مهما كانت شريرة -
جانباً مضيئاً ينبض بالخير ويجنح الى السلام ومن
واجبنا نحن أن نحاول التسلل الى هذا الجانب
الخير ، وان نستميله اليانا فلا يلبث أن يستجيب
ولا تلبث العداوة ان تنقلب الى صداقة والنفور الى
ألفة .. وجل الله فى علاه حينما يضع لنا القانون
الساوى الحكيم ، لكي نأخذ به فلا نضل السبيل
ولا نقع فى الأخطاء ولا تجرفنا المآسى : (ادفع
بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة
كأنه ولي حميم) .

أرأيت - يا بني - الى هذه البلاغة المعجزة وهذا

الاعجاز البليغ . لو اننا أخذنا بهذا القانون الالهي
لصلحت أمورنا واستقامت طرائقنا ، وكثرت
صداقاتنا وتلاشت عداواتنا ورفرف السلام والحب
علينا بجناحيهما الحانيين فأظلالنا من الهجير وأقالنا
من اللدد والخصام .

وأما الحق فهو ما اطمأن اليه ضميرك بعد بحث
وتدقيق . ان الضمير المؤمن - يا بني - لن يهدى
الا للحق . فايما نه بمثابة النور الهادي الى الصراط
المستقيم .

وهذا الاحتكام الى الضمير والركون الى ما يصدره
من حكم هو فيما لم يصدر به تشريع سماوى تؤمن
به ، ونذعن له ونسلم اليه حتى وان لم تستبين لنا
الحكمة فيه كل استبانة .

فمن أصدق من الله حكماً؟! ومن أصدق من
رسوله بلاغاً وتبياناً؟! ومن أكرم نهجا من أصحابه
النجوم الهادية بأيتها نقتدى نهتدى!؟

ان هذا التراث الاسلامي الخالد - يا بني - لهو

كنز الكنوز ونهاية الارب وغاية المأمول ،
وما يتجاهله أو يحيد عنه الا جاهل مسكين أو
أحمق مغرور أو مكابر قد ختم الله على قلبه وأضله
على علم .

وأما الباطل فهو ما استنكرته الشرائع
السماوية ، وأبته التقاليد الكريمة ، ورفضته
الضمائر القويمة فهو والحق على طرفي نقيض لن
يلتقيا قط ولن يركنا الى الراحة حتى يقضي أحدهما
على الآخر . فان انتصر الحق - وهو غالباً -
ما ينتصر - ساد الأمن وعم الرخاء واستتب السلام
ودرجت النفوس فى مدارج العز والكرامة .. أما
ان انتصر الباطل فويل للناس من المنتصرين ..
ويل لهم مما سيكابدون ويعانون .. ان الباطل
يا بني هو كالهرة التى تأكل بنيتها أو كالنار التى
تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله كما يقولون ..
ان القوي فى ظلاله الرهيبة سيستبد بالضعيف
وسيستغله ويضطهره كل اضطهاد دون رحمة . ولن
يدوم هذا له فان الضعيف - فى ظلال العسف

والهوان - سينتھز الفرصة حينما تسنح له فيعصف بالقوي عصفاً شديداً يزلزل كيانه ثم يذروه ذرواً في مهاب الرياح .

انه لم يرحمه فهو ليس جديراً بالرحمة منه . هذا هو ناموس الحياة وقانونها العتيد . ومتى قامت الحياة على قوة مستبدة وضعف مهين ثم على ضعف يستشرى بالعسف والهوان وينقلب من ضعف الى قوة ضارية تعصف بمضطهديه . فانها يومئذ تكون حياة غاب متوحش متواثب . . مظلّم رهيب لا حياة حضارة تحكمها قوانينها وأخلاقها وتنبت في تربتها الطيبة وتحت ظلالها الوارفة المعاشية المتعاونة المتحابّة العاملة على خير الفرد والمجتمع على السواء وشتان ما بين الحياتين وما بين المنهجين .

بقي يا بني سؤالك عن العقل والحس والجمال فأما العقل فهو هذا النبراس الذي ميز الله به البشر على من سواهم من مخلوقاته وهو شيء معجز محير احتار العلماء والفلاسفة في وصفه كما اختلفوا في مقره من هذا الهيكل . وان يكن

أكثرهم يميل الى أنه يشوى فى تلافيف المنح ..
وحيثما حاولوا أن يبحثوا ويحللوا هذه المضغة
الصغيرة الثاوية فى رؤوس البشرية خرجوا من
محاولاتهم العديدة بالمدهل الذى يتفوق على الخيال
فى أعلى وأرحب مسارحه .. رأوا فيه العجب العجاب
رأوا فيه قدرة الخالق العظيم فوقفوا أمامها
خاشعين مؤمنين مستيقنين بأن هذه الأعجوبة
الخارقة ليست ولن تكون من صنع البشر أو من فعل
قانون النشوء والارتقاء الذى ابتدعه (داروين) ثم
فنده من جاء بعده من الفلاسفة والعلماء . وكان
هذا منهم مصادقة لقوله سبحانه فى كتابه الحكيم :
(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين
لهم انه الحق) .

على ان المنح وحده ليس هو المعجزة الوحيدة فى
هذا الكائن البشرى فان هيكله هذا ليحتوى على ألوف
المعجزات المذهلة المحيرة ، فالسمع والبصر والفؤاد
والشم والذوق واللمس كل أولئك مما يدل دلالة
قاطعة على قدرة الخالق العظيم ولن يسع الباحث

والمحلل والدارس - لن يسعهم جميعاً الا الايمان
المطلق بالله وبعجائب صنعه .

ان العقل يا بني قد تمخض - بقدرة من
خالقه - عن جنين هو العلم بكل طرائقه ومناحيه
ومناهجه وأساليبه .. فالعلم وليد العقل ولا ريب
ولقد تكون الفلسفة توأماً له لولا اننى أرى ان
للخيال نصيباً فى ميلادها وتكوينها . فهى مزاج من
علم وخيال وان كان حظ العلم فيها أوفر . وكل
ما نراه اليوم من عجائب العلم تطلعاً ودراسة
ورؤية وتحقيقاً هو من ثمرات هذا العقل العجيب
فى تركيبه وتكوينه .. وكل ما سيستجد على
حضارتنا هذه من منجزات علمية باهرة هو من
ثمراته ولا ريب .

على أن هناك فرقاً دقيقاً بين العلم والفلسفة ،
فالعلم لا يعرف الا الواقع الماثل تحت بصره يكشف
له عنه مجهره وتكشفه له آلاته ومعامله وتحاليله
ودراسته .. أما الفلسفة فهى حين تتطلع الى الواقع
لا تبرأ من الخيال .. وكم من نظرية علمية تحققت



ولكن بعد أن سبقتها نظرية فلسفية متأملة باحثة
مستقصية مفكرة . مهدت لها السبيل وكانت لها
بمثابة الصوى في الطريق تكشف عن معالمه وتنير
مسالكه الى أن يفضي السارى به الى غايته المنشودة .
فالعالم دراسة وافية تستعين بآلاتها العلمية
وبعقولها الفذة حتى تصل بهما الى اكتشاف أو
اختراع يشيدان أو يدمران اذا ما ضلت بهم السبل
وأمسك بقيادهما الجبارة العتاة الذين ينتشون
بالسيطرة والاستعلاء ولو تما لهما على ركام من
الأشلاء .

أما الفلسفة فانها تفكير دائم وتأمل مستمر
يتمخض عن نظريات وآراء معمرة أو هادمة كما
نرى فى كثير من الفلسفات القديمة والحديثة على
السواء .. ولقد يأخذ العلم من الفلسفة ولقد تأخذ
الفلسفة من العلم فكلاهما متمم للآخر . وكلاهما
يقوم على الدراسة والتأمل والتفكير والتجارب .
ولكن للأول معامل وأدواته وللثانية صوامعها
ومجالها .

وكاد الشيخ أن يختم حديثه لولا أن ومضت في عينيه ومضات خالبة تفيض رقة وحناناً وتزخر بالذكاء والعرفان فاستدرك وربّت على كتف مريده بوداعه وتلطف وقال له :

— كدنا أن ننسى الفن والجمال والسعادة يا بني، وللفن والجمال والسعادة حديث يطول فهل لنا في شيء من الراحة نستجمع به شتات أفكارنا ثم نعود كرة أخرى الى الحديث فهو حديث يشوق وان طال ؟ وما أظن الا أننا جميعاً في حاجة الى استجمام مريح بعد أن ثرثرنا طويلاً فيما لعله لا يعدو التهريج الذي لا يستند الى منطق ولا برهان .

وتهيأ الشيخ للقيام فقام لقيامه مريدوه اجلالا لا يدفعهم اليه الا الحب والاعجاب ما تحدهما الحدود .

وكان هو جديراً بكل هذا بل بالمزيد منه .



وأشرق صباح جديد على سعيد وشقي وصحيح
ومريض ، أشرق على أشتات من البشر مختلفى
النوازع والميول متباينى الأفكار والمشاعر ، منهم
من تبتسم له الدنيا فيبتسم بعد أن أنالته من آلائها
الكثير الطيب ، ومنهم من تعبس له فيعبس لمتاعبه
وآلامه ، فلن يقوى سعيد على أن يشعر بمشاعر
الشقاء ، كذلك هو الشقي فلن يقوى على أن يشعر
بمشاعر تناقض ما هو فيه من تعاسة ، الا أفراد
قلائل من أولى العزم وهبهم الله قوة خارقة على
الثبات والاصطبار فلا تهن عزائمهم أمام الشدائد
والخطوب ولا ينهارون أمامها مهما قست وعنفت .

وأهلَّ الشيخ على مريديه ، بطلعته تلك
الوقور وبوجهه ذلك المتهلل ، فهبوا للقاءه فرحين ،
وأخذ مقعده منهم ، وتجاذب معهم أطرافاً من

الحديث الذى يعنى بشؤون اليوم وأحوال الناس فيه ، الى أن توسم فى وجوههم الرغبة الملحة فى أن يأخذوا فى الحديث الشيق الجاد ، الذى بدأه الشيخ من أمس ، وهم يرتقبون تمامه فى يومهم .

قال : تشقق الحديث بيننا يوم أمس وتشعب ، فأفدت منكم ، ولعلنى استطعت أن أقدم لكم بعض الفائدة فيما ثرثرت فيه من حديث ، له من الطول أكثر مما له من النفع .. كان الشيخ يقول هذا جاداً وصادقاً ، فما هو ممن ينطوون على زيف أو خداع ، أو ممن يتظاهرون بالتواضع الكاذب ، وهم لا يريدون من وراءه الا المزيد من الشهرة والمكانة ولغط المريدون لغطاً شديداً كانوا به يحتجون على كلام الشيخ هذا .. قالوا له : فانا نلتمس منك المزيد من هذه الثروة المستحبة ، فانها لذات متعة وجدوى ، قال : فاننى لأستعين الله فى استئناف ما أخذنا فيه من حديث أذكر أننا وقفنا عنده على تعريفات للسعادة وللغن والجمال ، قالوا : وانا لمنتظرون فهيا بنا اليه .

قال : أما السعادة فهي فى نظرى ، الشعور
بنشوة من عمل عملناه ، أو قول قلناه فكان له أثر
طيب فيما حولنا ومن حولنا ، ولقد تعجبون حينما
أقول أو الشعور بنشوة قول أو عمل ، أساء وأثخن
فاستراحت به النفس اللجوج .

ان الناس صنفان ، خير وشرير ، فأما الخير فانه
يرتاح لقول وعمل الخير ، ويحس منه بفبطة
وسكينة ، وأما الشرير فانه يرتاح لكل ما يضر
ويؤذى السوى ، أو لكل ما يجر اليه المغائم
والأمجاد ، ولو على ركाम من الخطايا والموبقات ..
ولقد اختلف الناس اختلافاً كبيراً فى تحديد معنى
الجمال ، وحمادى القول فى هذا التحديد عندى ،
ان السعادة الحقّة هى فى عمل الخير وفى الفرحة
التى يشاهدها عامله ، فى عيون ونفوس من عمله
معهم ، ثم فى نفسه ، فهناك أناس مسخرون لفعل
الخير ، يندفعون اليه بطباعهم السمحة ، وبالرغبة
فى الجزاء الأوفى عند من وعد به سبحانه عباده
الأكرمين .. ولقد تنقصهم كل أسباب السعادة من

صحة وحطام ومجد وشهرة ، وهم لا يبالون ،
فحسبهم أنهم فعلوا خيراً فاستراحوا بفعله ، أما تلك
الأسباب فهي أسباب للسعادة السطحية ، لا السعادة
اللباب ، سعادة الضمير والوجدان ، وأما سعادة
الشرير بفعل الشر تشفياً أو انتقاماً أو اندفاعاً
اليه بحكم طبع شرير لا قبل لصاحبه بمقاومته ، إلا
أن يشاء الله ، فهي سعادة خادعة خداع السراب ،
ولن تلبث أن تنقلب الى ندم مرير ينهش الروح
ويدمى الفؤاد ، فقليل من الناس أولئك الذين
يستمررون على فعل الشر واللذة به طوال حياتهم ،
فلقد قلنا من قبل فى حديثنا الأول : ان فى كل
قلب مظلّم زاوية مضيئة ، وان يكن يغشيها
الضباب ، ولا بد لهذه الزاوية أن تنقلب فى يوم
من الأيام على ما يحيط بها من ظلام فتبدده ، أو
ينقلب صاحبها الى شر مصير ، ويكون ممن كتب الله
عليهم الشقاء والعياذ بوجهه الكريم من هذا .

أما الفن فهو زبدة ما فى حياتنا من خير وجمال ،
ومن رقة ووداعة ، ومن سمو وترفع ، ومن توجيه

للذات وللسوى ، ومن تكريم للانسانية جمعاء ،
وهو بشتى ألوانه وصوره ، من أدب ورسم ونحت
وموسيقى وما إليها ، بمثابة رحيق الحياة وخلاصتها ،
وأرقى أشكال التعبير عنها ، أليس هو الذى يتسرب
الى أغوار النفوس ويقرأ خواجلها وأحاسيسها ، كما
يقرأ الانسان فى كتاب مفتوح ؟ ثم هو يشاركها
بعدئذ فى آلامها وآمالها ومصالحها فتثمر هذه
المشاركة أينع الثمرات وأشهاها .. كم للفن من
أياد بيض على ساعات العسرة فى حيواتنا ، وكم
له من أياد بيض فى فتح أعيننا على مجالى الخير
والحق والجمال .. كم أطرب وأنعش ، وكم واسى
وعزى ، وكم شيد وبنى وكم ردع عن ظلم وأسهم
فى حروب مقدسة لا يخرج منها الا ظافراً ، هو
وحماته وأنصاره وكم أطفأ من نيران حروب مستعرة
وقادها بيده الرقيقة الى ظلال السلام والأمن
والطمأنينة والرخاء والعدالة الاجتماعية ؟

ان للفن آثاره الكبيرة التى لا تنكر ، واذا كان
العلم يستمد من العقل فان الفن يستمد من الحس

من الوجدان والضمير .. من الخيال المجنح الملهم ،
وهو فى كثير من الأحيان يسبق العلم الى كشف
مذهلة لم يهتد اليها العلم الا على ضوء مصابيح
المتألثة .. على اننى أرى ، ولعل هذا الرأي أن
يكون خطأ ، ولعله أن يكون صواباً كما أوّل أن
يكون ، أرى فى كل أثر علمي لمحة من الفن ، كذلك
هو الفن لا يبرء من مثل هاته اللمحات العلمية ، ان
كل ملكاتنا يشارك بعضها البعض ويسهم معه فى
صنع ما يصنع .. قد يكون هذا الاسهام جلياً
واضحاً ، وقد يكون خفياً لا يحس الا بأعين نافذة
الى لباب الأشياء وصميمها ، وما أشك ان هناك
شعراء ورسامين ونحاتين وموسيقيين ، يقولون
الشعر ويرسمون وينحتون ، بالفطرة المجردة ،
بالموهبة الأصيلة ، والذوق الرفيع المصفى ،
ومعظمهم من الرواد الأوائل ، الذين جاءوا فى
بداية النهضة ، وبواكير الحضارات ، قبل أن تقوم
العلوم وتنبتق الفلسفات وتنتشر الثقافات على
سطح هذا الكوكب ، فجاءوا بالمعجب المطرب من

وحي الطبع الذى لم تشاركه الصناعة المرتكزة على
عديد من الثقافات .

وما تزال لبعض هؤلاء الرواد آثار قائمة بيننا ،
نعجب بها ، ونقدرها حق قدرها ، وتدرسها
الجامعات والمعاهد المختصة ، والأفراد المتيمون
بالفن فى كل عصوره ..

والشعر العربي الجاهلي خير مثال نضربه على
ما نقول ، فان لبعضه مكان الصدارة الدائمة
ومقعده فوق عوالى القمم ، وقل مثل ذلك عن الرسم
والنحت وما اليهما من الفنون الجميلة فى اليونان
والرومان حتى فى أوربا قبل أن تشرق عليها
شمس الحضارة هذا الاشراق وتنبت فيها المدارس
والمعاهد والجامعات ، وما أريد أن أطيل فى ضرب
الأمثلة خشية الملل ، ولكنى أضرب المثل بشكسبير
ودانتى وغوته ورفائيل وميكائيل أنجلو وبيتهوفن
وشوبان وموزارت ، وكثير ممن يدانيهم ان لم يكن
على مثل مستواهم الرفيع ..

اذن فالفن موهبة قبل أن يكون ثقافة .. قد

تزخره الثقافة وتصقله وتفتح له آفاقاً جديدة ،
ولكنها لن تستطيع بحال أن تخلقه فى نفس انسان
وأما الجمال يا بني فهو آية من آيات الله الكبرى
الذى نسبح ونقدس له حينما تجتذبنا اجتذاباً ،
وتستحوذ على ألبابنا ومشاعرنا بروعتها وسحرها ،
ونعرف عن يقين وإيمان انه لا يستطيع مثل هذا
الابداع المعجز الا هو ، وهو يتجلى فى أروع
مظاهره فى هذا الكائن البشري الذى يبهرننا
أحياناً ، فنصعق ونقف أمامه باهتين مستسلمين
مطيعين ، فلو انه أمرنا ونحن فى حالتنا هذه بما
شاء ، لما استطعنا الا الامثال ، ونمثل ونحن
راضون محبورون ، فلا غاية لنا الا ارضاءه وادخال
السُرور الى نفسه ، بما يشهده منا من طاعة
وامثال ، هذا فى الجمال العاقل الآسر ، فهو يعرف
مبلغ سلطانه على النفوس وتأثيره فيها ، فيستعلى
ويستبد ، ويأمر فيطاع ، ويطلب فنسخر له
بالنفيس ، ثم لا نترقب منه جزاء ولا شكورا ، وهو
بدوره يأخذ ويرى أنه أسدى الى من أخذ منه

معروفاً ، وقدم له يداً ينبغي له أن يحمد عليها ،
ويعترف بالفضل .

كم أدار الجمال من رأس حواء وأثملها
فأطاحت برؤوس كثيرة من عليها الى الحضيض ،
وكم ظن الجمال أنه ذو ربيع دائم ، لا يتطرق اليه
الحريف ، فلم يحسب حساباً للفلك ودورانه ، ثم
لم يفتن الا بعد أن أدركه الحريف ، فصوّح من
روضة الأنيق وأذبل من أزهاره الناضرة ، فاذا هو
بلقع جفت غدرانه ، وهجرته بلابليه ، وتيبست
كرومه ونخيله ، وتلاشت أشداء براعمه وأزهاره ،
ذلك هو الجمال الأحقق المغرور .

أما الجمال الذكي الحصيف ، فانه لبعد نظره ،
ولمعرفته بدوران الأفلاك وتغير الأحوال ، أو لطيب
خيمه ، لا يستبد ولا يستغل ، ولا يجحد ولا يتنكر ،
وهو بذلك يتزود لمستقبله من حاضره ، فاذا وافاه
يومه المحتوم ، وجد حوله القلوب العاطفة ،
لا القلوب الدامية ، والنفوس المعترفة لا النفوس
الناقمة ، فكان له من خريفه ربيع ، وعاش ما عاش

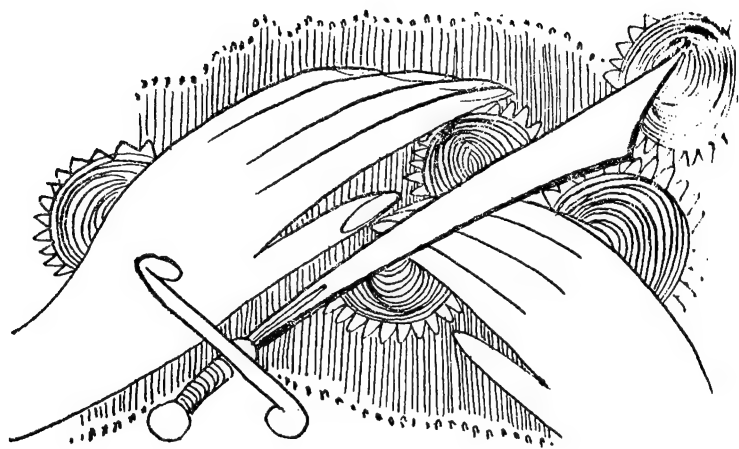
فى طمأنينة وحبور ، لا يعكرهما عليه الا الذكريات
الآسية الحزينة ، التى توازن ما بين حاضرها
وماضيها ، فتعرف أين الخسارة وأين الرجحان ،
ولكنها تكتفى بالعزاء الجميل ، والمواساة الكريمة .

هذا تاريخ طويل يا بني للجمال البشري ، لو
ان حواء أخذت منه العبر ، لما تفتطرت الأكباد ،
وتطايرت الأحقاد ، وأظلم اليوم والغد ، من تطاول
ومخازى الأمس .

والعبرة لن تتأتى للحسان الا بالثقافة ، وقبل
الثقافة بالخلق النبيل ، والعراقة المتحدرة من
قديمها الى الجديد .. وكم لصرعى الأحداق والثغور
والنحور من مأس ، لم تثمر الا التدهور ، والا
الضعينة ، والرغبة الملحة فى الانتقام .

فليترك الغيد المصارع وليحذروا من عواقبها
الوخيمة .

وصمت الشيخ قليلا ليسترىح ، من عناء حديث
طال وأجهد الفكر والحس ، لأنه خرج من أعماقها ،



ثم التفت الى مريديه قائلاً : لقد تحدثنا عن الجمال
البشري حديثاً عاماً ، ولكننا لم نحدد مقاييسه
وموازينه بين الناس ، كل ما نستطيع قوله هو أن
هناك مقاييس وموازين ، قد لا يختلف عليها الناس
اختلافاً كبيراً ، من حيث المظهر الجمالي المرئي ،
ولكنهم يختلفون مثل هذا الاختلاف فيما عدا ذلك ،
فبينما أقول أنا مثلاً : بأن هذا الجمال خارق وانه
في الذروة ، اذا بسواي ينكر علي هذا كل الانكار ،
ويقول بأنه جمال ينقصه الكثير من المزايا
والسمات ، في حين أقول أنا مثلاً عن جمال آخر
بأنه عادي أو متوسط ، فأجد من يقول كلا ، بل
هو ساحر خلاب ، وفي القمة التي لا يقتعدها الا
القليلات .

اذن فالجمال انما هو انعكاس لنظرة الناظر
اليه ، وجاذبية ممغنطة تنتقل بسرعة البرق الخاطف
من القلب الى القلب ، فتؤثر فيه ، وتقيده اليه ،
وتلصقه به ، فهو مشغوف به ، منافح عنه ،
لا يستطيع عنه حولا ، ولا يبغى به بديلا .

والواقع الذى نعيشه يضرب لنا الأمثال المؤيدة،
فكم من عظيم وقع في حبائل انثى عادية ، ليس فيها
من مخائل الجمال الا لمحات باهتة ، فاغرم بها غراماً
شديداً ، قيده اليها ، فهو من حبها فى شغل شاغل ،
وكم من حسناء فاتنة ، احتوتها جدران بيت لم ير
صاحبه بها ما يخلب ويفتن ، فأعرض عنها الى
سواها ، ممن هن دونها جمالا وظرفاً وسحراً ،
بما لا يقبل الموازنة والقياس .

وما أصدق المتنبي حين قال :

لا تعذل المشتاق فى أشواقه

حتى تكون حشاك فى احشائه ؟!

والشاعر الذى قال قبله وهو يهيم حباً بجارية
سوداء لاشية فيها من جمال :

أحب لـحـبـها السـودان حتى

أحب لـحـبـها سـود الكلاب

وقانا الله - يا بني - من سوء النظر ، ورداءة
الذوق ، وانحراف الطبع ، وخيبة المسعى .

ثم قال الشيخ : بقى علينا أن نتحدث عن الجمال في مجال الطبيعة الأخرى في هذا الكون العجيب ، بمعجزاته وسدمه وشموسه وأقماره وكواكبه وسمائه وأرضه ، فان في هذه المجالى ، ما بلغ الغاية من الجمال ، والروعة والاتقان ، وما بحثه العلم ، وتأملته الفلسفة ، وتغزل به الشعر ، فلم يبلغوا ببحوثهم وتأملاتهم وغزلهم عشر معشار ما ينبغى أن يرصد له ، وموجز القول فيه ، انه شىء يتعدى طاقة الخيال والحسبان البشري ، ذلك لأنه صنع اله متفرد .

تحبو العقول والمشاعر مهما عظمت وتسامت ، كما يحبو الأطفال حول شىء يرونه فيعجبهم ، ولكنهم لا يستطيعون النفاذ الى كنهه ، ولا التغلغل فى مساربہ ، فيبكون حوله ، ويضحكون بسذاجة الصغار وبلاهتم ، ثم لا يسعهم الا التفرق ، بعد ان عجزوا عن الادراك .

وكل هذه الكشوف العلمية التى بهرتنا ، ليست الا مجرد محاولات صبيانية بالنسبة لحقائق الكون

العظيم ومعجزاته ، هى لم تصل بعد الا الى قليل من القشور أراد الله لها أن تصل اليها ، أما اللباب ، فهو سر الأسرار ، ولغز الألغاز ، على كل العقول والمشاعر والأخيلة ، وصدق الله العظيم حينما يقول فى محكم تنزيله : (وما أوتيتم من العلم الا قليلا).

ان العالم والفيلسوف والشاعر اذا لم يكونوا من المؤمنين من قبل ، ثم تكشف بصائرهم بعض حقائق الكون وأسراره ، لا يسعهم الا الايمان المطلق بقدرة الله وعظمته وجلاله ، أما أولئك الذين ما يزالون مصرين على الكفر والالحاد ، فانهم أنصاف علماء وفلاسفة وشعراء ، فان العلم الصحيح ، وكذلك هى الفلسفة والشعر ، لتهدى الى الحق بعد أن اتضح أمامها السبيل ، وأضاءته أنوار البصيرة المنصفة .

هل نتكلم بعد هذا الكلام الطويل الممل - يا بني - عن مجالى الجمال فى الروض الأغن ، وفى الخمائل الخضر ، وفى الأعشاب المتراقصة ، وفى الجداول المنسابة ، والغدران الفراتية ، وفى

شدو البلابل ، وانقضاض الصقور ، وتحليق النسور، وزقزقة الطيور ، ثم فى البحار المتلاطمة، وفى الأنهار العذبة ، وفى الجبال الشم ، وفى السهول المترامية ، والتلال المتناثرة ، فيما تحويه البحار من عوالم الأسماك ، والبرارى من عوالم الزواحف والوحوش والظباء والأرانب وما إليها من داجن ومتوحش وفريسة ومفترس .

ان الكلام ليطول بنا ويطول حتى لا نستطيع بعد أن نكفكف من غواربه ، فيغدو ثرثرة مسئمة لا تمتع ولا تفيد ، بل تحمل على النفور والانقباض، وما أريد أن نصل بحديثنا الى هذا الدرك المنحط ، فحسبنا اليوم ما أخذنا فيه من حديث منذ أن جلسنا مجلسنا هذا فى بواكر النهار حتى كاد أن يدركنا الأصيل .. فالى لقاء جديد فى حديث جديد أرجو أن لا نصل به الى حد التبرم والاضجار .



هاهو اليوم الثالث يهل على المريدين وقد عاد اليهم الشيخ . فعادت بعودته اليهم البراعم والأشداء والأنداء ، فكأنهم فى روض حال بثماره وأزهاره وغدرانه وبلابله يجتلونه ويجتنونه فما يبخل عليهم ولا يضيق بهم وانما هو العطاء بعد العطاء يروى ويشبع .. وينعش ويطرب دون من أو امساك وانما هو التهلل المتواضع والبشر المجتذب . لا ملال منهما ولا كلال .. بل رغبة وتهافت .

وأهلّ عليهم الشيخ بطلعته الوقور ، ومحياه الباش ، فافترت ثغورهم عن ابتسامات الرضى والحبور فأقبلوا عليه يزفون .. وحياهم هو بتحية الاسلام تنشر السلام والمحبة بين الناس . فردوا تحيته أجمل رد وأحفله بالود والتبجيل .. ودار

الحديث بينهم هنيهة كما تدور الأحاديث فى أول اللقاء ثم استعدوا للبحث والحوار وتقدم مرید الى شيخه بسؤال عن الشعور بالمسؤولية وكيف يتأدى اليه الناس ؟ وكيف ينشأ ويترعرع فى الصدور ؟ وماهى مناهله الأولى التى منها يستقى وبها يكتمل ؟ وأطرق الشيخ برأسه الى الأرض ثوانى معدودات ثم رفع رأسه وأجال بصره بين مريديه بحنو واعجاب ثم قال لمريده : رعاك الله - يا بني - وأمدك بعون منه وتوفيق انه لسؤال رحب منيف ليست الاجابة عليه مما يسهل ولكننى بما أوتيته من العلم الزهيد سأحاول الاجابة عليه وأقول لكم هذا مبلغى من العلم ؛ انّ الشعور بالمسؤولية قمة من قمم الخلق الانساني لن يفترعها الا انسان ممتاز وهو اذا تمكن من هذا الانسان جرى منه مجرى الدم .. وكان له رائدأ ودليلا وضابطأ دقيقأ لتصرفاته فما يحيد عنه ولا ينحرف ولا يقبل فيه المساومة ولا الجدل انه يسير فى طريقه اللاحب ولا يبالى بلوم ولا تهديد حتى ولو كانا ممن يملك أعنة النفع والضرر وأسباب الرفع والخفض لقد كان أسلافنا

الغطاريق يتميزون بهذا الشعور النبيل وبه
استغنوا بعد املاق .. وارتفعوا بعد انحطاط
ففتحوا الممالك والأمصار ونشروا العقيدة السمحة،
ورفعوا راية العدالة والانصاف أينما حلوا وحيثما
رُفرت راياتهم الشم .. ألم يقل المؤرخ الفرنسى
الكبير غوستاف لوبون: ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم
من العرب !

لقد كانوا من قبل من الغلاظة بمكان ومن التفرق
والتنازع بحيث لم يدر بخلد أحد أنهم سيكونون
خير أمة أخرجت للناس ..

ان الايمان - يا بني - هو الرافد الأول والأغزر
للشعور بالمسؤولية فالانسان متى آمن ذلك الايمان
الراسخ الذى تهديه السماء الى الأرض فانه يشعر
حينئذ بمسؤولية ضخمة تجاه ايمانه . وتجاه
نفسه . وتجاه مجتمعه ثم تجاه الانسانية برمتها ..
وهذه المسؤولية هي التى تحكم تصرفاته وتتحكم فى
ميوله ونوازعه فلا يقوى على مخالفتها بحال ..

ولقد يخالجنى أحياناً احساس قوي بأن

للمدراسة شأنًا كبيراً فى سلوك المرء وان لم تطرد
القاعدة فتحفل بالشواذ كما هو الشأن فى ولد نوح
نبي الله فلقد قال له ربه حينما خاطبه فيه
مستشفعاً : « انه ليس من أهلك انه عمل غير
صالح » فهنا شذت القاعدة عن القياس ، وتصدر
من صلب نبي مرسل مخلوق فاسد تاعس أبى عليه
عمله الخاطيء أن يكون من الناجين مع أبيه ومن
كان معه أما العامل القوي الملحوظ فى تربية
هذا الشعور وتنميته .. فانه عامل البيت والمدرسة
والبيئة الصالحة والمجتمع الرشيد .. الوالدان -
ولا سيما الأم باعتبارها لصيقة الطفل فى طفولته
وصباه ثم الأب .. فكلاهما يحمل قسطاً وافراً من
مسؤولية التربية والتوجيه فى تلك السن المبكرة
من حياته .. انه يومئذ أشبه بالشمع اللدن وكيفه
صاحبه كيف شاء .. فعليهما أن يحرصا الحرص
كله على رعاية أطفالهما وهم صغار قابلون للتكييف
وللتوجيه وللأسوة الحسنة بما يرونه من أصولهم
ماثلاً بالعمل والقول لا بالقول وحده فهو لن يكفى
بحال بل أنه ربما كان من أكبر عوامل الاعوجاج

فى نفوس الأطفال الذين يسمعون من آبائهم
وأمهاتهم غير ما يرونه بأعينهم فتشتبه عليهم
الأمر ثم يبؤون بشر المصائر بعد أن تدلهم عقولهم
الصغيرة الى السخرية والتهمك بأولئك الآباء
والأمهات الذين يقولون ما لا يفعلون فيقلدونهم
وهم يتظاهرون بالطاعة والامثال لنصائح ليس
لها سند من حقيقة ولا واقع ولقد فطن العرب
القدامى الى تأثير التربية البالغ فى نفوس الصبية
الناشئين فقال شاعرهم :

وينشأ ناشئ الفتيان منا

على ما كان عوده أبوه

واننا لنشهد سلاطات متعاقبة وهى تسير على نهج
واحد مستقيم من دين وخلق وعلم وأدب وفن وكل
هذا بتأثير التربية الحسنة والقذوة الطيبة والدم
الزكى الذى لا يتحول الى دم فاسد الا فى القليل ..

ويأتى دور المدرسة بعد البيت .. فعلينا أن
نختار لأبنائنا من المدارس ما هو جدير بتربية

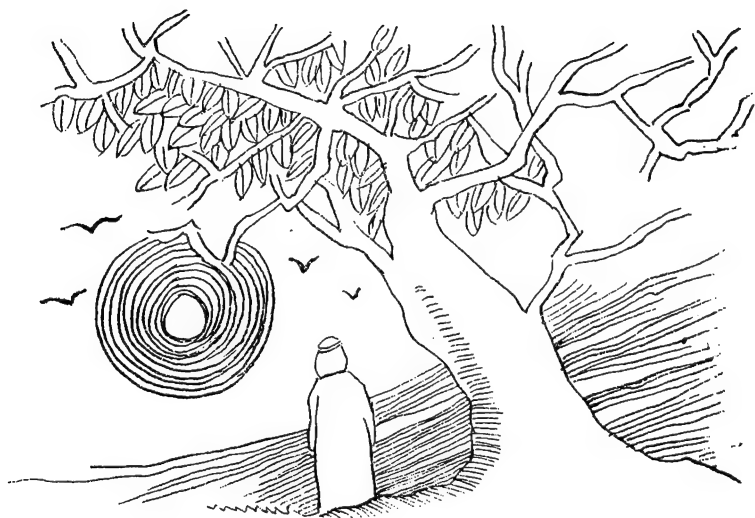
الجيل وصياغته أكرم صياغة .. مدارس تعنى أول ما تعنى بالدين وبالخلق وبالتقاليد ذوات الجلال والعراقة ثم بعد ذلك بالتعليم على أسس ومناهج سليمة لا تعقيد فيها ولا غموض .. ولا انحراف ولا التواء .. ويتخرج منها الطلاب وقد تزودوا بزاد من علم وخلق يشقان لهم الطرق الى المحامد والمآثرات .. والى عزة ورغادة وسماح مجتمعهم الكبير .

وللبئية والمجتمع دور ليس بالهين ولا البسيط فلقد ينبت الفرد نباتاً حسناً فى بيته وأسرته وفى مدرسته وأترابه .. حتى اذا انغمس فى مجتمع فاسد أثر عليه هذا المجتمع قليلاً قليلاً حتى يلوى عنانه ويبدل طريقه فيجارى مجتمعه ذلك بعد أن يقاوم فتعييه المقاومة وينقلب رجحانه الى خسران ..

على أن هذا لن يتم الا اذا خرج المرء من مجتمعه الأصيل الذى ترعرع فيه بين منزل كريم ومدرسة مثلى وأتراب صالحين الى مجتمع آخر لم يحظ بمثل ذلك المنزل ولا تلك المدرسة والأتراب ومن هنا جاء

تخوف المربين وتوجسهم من خروج الشاب قبل أن
يصلب عوده وينضج عقله وتتغلغل فى دمائه المبادئ
والمثل والتقاليد من مجتمعه الذى جبل من ترابه ..
الى مجتمع غريب عنه وعن عقيدته ومبادئه ومثله
وتقاليده لئلا يحدث له ذلك الانقلاب الرهيب ..
وما أبعد نظرهم فيما ذهبوا اليه .. وما أشد
حرصهم على فلذات أكبادنا من أن تميل بهم كفة
الميزان فتضيع كل الجهود التى بذلت فى سبيل
تقويمهم وتربيتهم على أفضل مثال .. وتذروها
الرياح فيتحول الطيب الى خبيث .. والراشد الى
غوي .. فلا نحصد الا الهشيم ..

هذه - يا بني - هى دعائم الشعور بالمسؤولية ..
الوراثة - فى حيزها الضيق - والبيت والمدرسة
والمجتمع . فهى التربية والبذور وهى هي الماء
والشمس والهواء للشعور بالمسؤولية فى أصدق
مدلولاتها وسكت الشيخ فى ارتقاب سؤال جديد
من أحد مريديه الكثير .. بعد أن أبدى وجهة نظره
فيما سئل عنه .. وبعد أن لمح ملامح القناعة



والرضى بها في وجوه مريديه .. وتحفز مريد آخر
بسؤال كان يعتلج في نفسه ووجد أخيراً فرصة
للقائه على الشيخ قال : هل لي أن أتقدم لشيخى
بسؤال شد ما ألح علي الحاحاً متواصلاً لم أجد
معه معدى عن الافضاء به اليك ..؟ قال له الشيخ
وقد أضاعت وجهه ابتسامة وديعة مطمئنة : هاته
يا بني .. قال : فأننى لأسأل عن الغنى والفقر
وأثرهما فى نفوس البشر ، وأيهما خير لهم ؟ لقد
ذقت مس الفقر فألفيته كمس السياط يدمى ويلهب
.. كما ذقت طعم الغنى أو قل بسطة عارضة من
العيش خفت منها على نفسى البطر والاستعلاء ..
ولقد يسعدنى أن أسمع من شيخى رأيه الوجيه فى
كليهما .. وأتأثر الشيخ نظره اليه ثم أجاله فى
مريديه . وكان من بينهم اثنان ؛ أحدهما من سلالة
عائلة على جانب كبير من الثراء ، والآخر متحدر
من أصلاب كلها على متربة واملاق ، لكن الأول
منهما كانت تعلوه كآبة متبرمة ، والثانى كان على
مرح دائم مستخف ، وكان الشيخ يقول عن أولهما
انه الغني الصابر، وعن الثانى أنه الفقير الشاكر،

نظر الشيخ الى اثنيهما وأحدّ نظره فأغضيا استحياء
ولكن الشيخ أشار الى أولهما وقال لمريديه :
ألا تعرفون أخاكم هذا ؟ قالوا : بلى .. قال : فانه
قد ربى فى أحضان النعيم ، وتذوق رغادة العيش ،
وعاش ولم يتكبد عناء العمل المرهق ولا ذل الحاجة
ولكنه الى ذلك متبرم كئيت .. لماذا ؟ ! لأنه ذو
نفس لا تعيش لنفسها فحسب ولكنها تعيش لسواها
تتلفت الى هذا السوى فتجده فى نصب وفاقه
يكاد أن يمتصا حياته امتصاصاً فلا يتركها إلا
كالذبابة التى تطفئها النسمة العارضة ، أو هى
كالشمالة التى يريقها الشارب بعد أن ارتوى . وقد
رأى بها بعض الكدورة فعافها وأراقها .. انه ليتألم
مرتين مرة لنفسه التى تؤذيها هذه الفوارق أذى
شديداً . وأخرى للآخرين من البؤساء المكابدين
ما يجدون من القادرين رحمة ولا عوناً ينشلانهم من
القاع المظلم الذى استقروا فيه وهم يتطلعون
بأبصارهم الى فوق فيجدون اليسار والنعماء
ويجدون الصحة السابغة مؤزرة بالحول والطول .
فيستجدى بعضهم تحت وطأة الحاجة المضنية أحقت

بهم وبمن يعولون ، فأوردتهم موارد الذلة والهوان
ولقد يستجيب لهم القادرون . وقد لا يستجيبون
فما يملكون الا الصبر والتسليم . أو الانطواء تحت
الجناح المنبسط المتين .. ويترفع البعض الآخر
صوتاً لكرامته من التكفف المهين .. ويصطبّر
اصطباراً قاسياً على صروف الدهر ، ولو أوردته
الحتوف ، هذا ما يعانيه أخوكم هذا . فأنا لهذا
أنعتة بالفني الصابر على احساسه هذا المرهق
المرمض . وأعرف أنه يتذوق مرارة الحنظل في
كأسه المترع بالرحيق الحلو . فهو من أولئك الذين
لا يهناون برغادة العيش الا اذا شاركهم فيها من
حولهم أو فانه ليصبو الى أن يكون مثلهم فيعاني
ما يعانون ويجد لهذه المعاناة لذة وامتاعاً لأنها
تحوطه بالحب وتضرب حوله نطاقاً يحميه من الحقد
والحسد وما يجران اليه من مأس على الحاقد
والحاسد وعلى من يمتدان اليه بشواظهما المحرق ..
ثم أشار الشيخ بسبابته الى مريده الآخر وقال :
أما هذا الفقير الشاكر ، فأننى لأراه على عسره
واملاقه أسعد حالا من أخيه على ثرائه العريض ..

لقد ألهمه الفقر بسوطه فنظر حوله فاذا بأسرته كلها راضية قريرة العين . قد راضت نفسها على الرضا بحظها من الحياة ، فأكسبها هذا الرضا مناعة كمناعة التطعيم ضد الأمراض السارية ثم هو يجد الكثيرين من حوله فى حالة ان لم تكن كحالته فهى أسوأ بقليل أو أحسن بقليل أى انه يعيش فى وسط متقارب المستويات فليس هناك من حقدة ولا حسدة بل هناك تعاطف لعله يحمل على التعاون وتقوية الوشائج التى يوهنها التنافس فى المستويات الرفيعة ولقد يرهقه الشظف أحياناً فيفسح له من رقعة الأمل فى ارتقاب وضع أفضل ومجرد هذا الأمل يدعو الى النشوة والاغترباط وانتظار المجهول المترف . . ثم انه يعيش فى اطمئنان لا يشوبه قلق، وعلام القلق والدهر لا يستطيع أن يأخذ منه أكثر مما أخذ الا اذا أراد أن يدمر وهى حالة يتعرض لها الغني والفقير على السواء فيشتد خوف الغني فى حين لا يكون لدى الفقير ما يدعو الى الخشية منه بل لعله يرحب وهو فى عسره وضائقته بالخطوب التى

قد تريحه من الحياة المتربة القاسية .. ألم يقل المثل
العامى الدارج « العريان فى القافلة آمن » ؟!

على أن هناك من يزعزع الفقر من إيمانه ،
ويزلزل من إرادته فيجذف ويجأر بالشكوى الى غير
راحم وما يزيد بهذا الا أن يجعل من نفسه هزواً
وسخرية والا أن يضاعف من بلواه بهذه الشكوى
المتردية وهذا التجديف المبيد .. وأحمد الله على أن
صاحبنا وذويه ليسوا من هذا القبيل المتهالك والا
كان الفقر نقمة عليهم .. ولم يصح لنا وصفه
بالفقر الشاكر .

ومقطع القول فى الغنى والفقر أن لكل منهما
مزاياه وأسوأه فالغنى حينما يكون وسيلة الى الخير
والاحسان حتى ولو أنه عاش فى رغد ونعماء فانه
ولا ريب من نعم السماء التى يجب على من أصابته
الشكر ان وفقه الله الى انتهاج خير السبل
لاستغلال هذا الغنى واستثماره فى تخفيف
الكربات ، وتفريج المضائق وانتشال الفرقى فى
أحوال الحياة من الحمأة التى يتمرغون فيها ..

هذا الى جانب خصوبة عيشه مما أفاء الله عليه ،
والفقر حينما يقابله من اصطفاه الله له ..
بالصبر والامثال والاذعان لقضاء الله الذى يقلب
الأحوال على عبادہ فيصيبهم باليسر والعسر لينظر
من عليائه اليهم كيف يقابلون هذا القضاء ..
فانه قد يكون خيراً من الغني اذا كان هذا لم يقدر
نعمة الله عليه حق قدرها ، فيسرف ويغتر
ويتصرف تصرف الحمقى لا تصرف الراشدين ، هو
خير منه ولا جدال الا اذا تشكى فأضاع من ثوابه
وأدال من رجولته وكرامته بين الناس . فهما في
هاتين الحالتين في الخسران سواء .

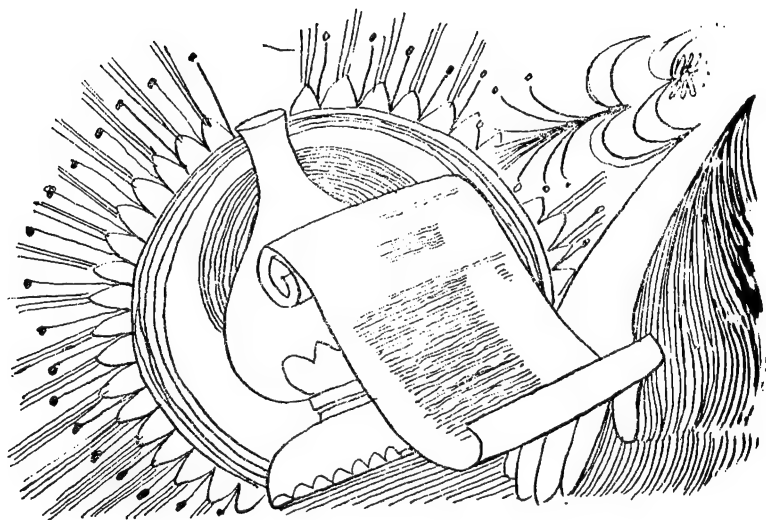
وسكت الشيخ قليلاً ثم عاود حديثه فقال :
هناك قول شائع بين الناس هو أن الغني الشاكر
خير من الفقير الصابر .. وعللوا هذا التفضيل بأن
الغني ابتلى بالغنى وهو امتحان عسير يكشف عن
معدن المرء لتعرف نفاسته من خساسته .. فمن
شكر الله على غناه .. ثم أعطى هذا الغنى حقه من
البذل والاحسان فريضة ونفلاً فهو جدير بالتقدير

من الناس وبالجزاء الأوفى من ربه .. أما من بخل
على نفسه وعلى الناس ، وامتنع عن أداء حقوق الله
المفروضة عليه فى ماله فهو خسيس لن يبوء الا
بالخذلان وبالحزى فى داريه ، وأنا أستدرك على هذا
فأقول : ان الغنى الشاكر هو انسان جدير بالمحمة
والثناء ، وجدير بالاكبار والاجلال ، وجدير بعد
هذا برضى الله عنه فلقد أعطى النعمة حقها ولم
يبخل بما آتاه الله من فضله على شح النفس الغريزي
وحرصها على الجمع والاكتناز من الحطام هذا ..
ما أمكنها وأنا - بدورى - أقول : ان الفقير
الصابر كذلك قد أمتحن فاجتاز الامتحان بنجاح
ان للفقير لدعة كلدعة الشياطين . ولقد يصيب
بعض الناس بالحطة والحقارة فيهبون فى سبيل لقمة
العيش .. ويبذل ماء وجهه رخيصاً فى الاستجداء
المستخذى بتملق لا يليق بالأحرار الذين يصطبرون
على بأساء الحياة ويعيشون فى كرامة واعتزاز مهما
أدقوا وضائق فى وجوههم السبل .. فاذا اصطبر
المرء على مثل هذا الفقر المترب فانه - كالغنى

الشاكِر جدير بالثناء والاطراء ولعله أجدر منه بهما .

ولمس المريدون ما بذله الشيخ من جهد جاهد لا يقوى عليه الا من كان فى شرح الشباب .. وهو قد أوغل فى السن ، ودق عظمه وضعف بصره وان لم يخب' نور عقله وضميره ، بل انه ليزداد بريقاً ولعناً كلما مرت به السنين .. وان لم يهن عزمه ويقل نشاطه فله منهما حظ الشباب القوي .. انه حيوية دائبة ونشاط متوثب غير أنهم ترفقوا به والتمسوا منه أن ينفذ مجلسهم هذا ليجتمع من غده فى مكانه المعلوم فشكر الشيخ لهم هذا ، وانفذ المجلس فى ارتقاب يوم جديد .. وقالوا : لكل حادث حديث .





كان الشيخ يعتكف فى شهر رمضان المبارك للعبادة المتأملّة فيما ذرأ الله لعباده .. وفى الكون ومعجزاته .. وفى البشر وهم من المعجزات الكبرى لبارئهم وأكثرهم لا يعلمون .. وفى كل آية من آيات الله المنبثة فى كل جزء من أجزاء الوجود .. مرئية وغير مرئية .. وكان يضيف الى هذه العبادة أنماطاً من محاوراته مع مريديه يغرس بها فى نفوسهم المزيد من حب الله واجلاله والتفكير فى آياته وآلائه .. وكان يقسم أيام هذا الشهر ما بين المسجد الحرام والمسجد النبوي الشريف .. قال مرة لمريديه : اننى لأجد فى هذا الاعتكاف بهذين الحرمين المقدسين من المتعة الروحية ما لا تعدلها متعة فى هذه الحياة المندثرة .. وأجد الى جانب هذه المتعة الحفيلة من الفوائد الجمّة ما لا تعدله كنوز الأرض .. ليت الناس يستطيعون أن يتخلصوا من أغلال

الجسد .. من هيو لا هم الى عالم الروح الفسيح المشع
بأنوار لا تمتّ الى أنوار الحياة الدنيا بصلة ذلك
لأنها أنوار الهية تخترق الحواجز والحجب المادية
الكثيفة حتى تصل الى قرارة الروح فتضيئها وتعمرها
بالحق والخير والحب والجمال ..

وكان الشيخ وقد انتصف شهر رمضان ..
يتهيأ لشد الرحال الى المسجد النبوي للصلاة فيه
والاعتكاف والسلام على سيد الكائنات محمد بن
عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ..

وكان كثير من أتباعه المريدين يتبعه في هذه
الرحلة الدينية الميمونة الى تلك الرحاب .. وقليل
منهم يتخلفون بفعل ظرف قاهر لا يمكنهم من هذه
الرفقة الحبيبة .. يتخلفون متحسرين على فوات
فرصة ما تعوّض .. ولكنهم يرجون من رفاقهم
الذين أسعدهم الحظ باصطحاب الشيخ أن يوافقهم
بخلاصات موجزة من أحاديث الشيخ وحواره فلا
يخيّب رفاقهم هذا الرجاء ، وقد ألفوه في سنوات
خلت وقاموا به خير قيام فقد علمهم الشيخ فيما

لملم أن يكونوا لبعضهم اخواناً ، وان يترابطوا
” يتكافلوا ترابط وتكافل الأسرة الواحدة تجد
لزماً عليها هذا حفاظاً على كيائها من التفكك .

وأراد - استجابة لرغبات مريديه الملحة - أن
يجلس مجلسه الأخير معهم قبل أن يتوجه الى طيبة
الطيبة .. كان الجو السائد فى تلك الجلسة واجماً
دئيباً وان شابته غبطة لشيخهم أن حقق له أمنيته
التي يرتقبها في كل عام .. فأما الراحلون فقد
كانوا على ابتهاج غامر ، وأما المتخلفون فهم
الذين وجموا واكتأبوا وودوا لو أن ظروفهم سمحت
لهم كما سمحت لآخوانهم بمرافقة الشيخ الى هناك
واكتساب مثوبة الزيارة الميمونة مع ملازمة شيخهم
وعدم الافتراق عنه ولو ساعة من نهار . وأحس
الشيخ منهم هذا فاغتبط وتألم فانه ليكن لمريديه
من الحب والحنان ما يفوق حب الأب لأبنائه البررة ،
ولكنه واساهم بتلطف ودعا لهم بخير ، وقال : ان هي
الا أيام قلائل فى تلك الرحاب المقدسة ثم نعود
بعدها اذا أذن الله لنا باللقاء .. ولسوف نذكركم

هناك فاذكرونا مثل ذكرانا لكم .. ولسوف نبتهل
الى الله الكريم أن يمنّ علينا جميعاً بفضل منه
وتوفيق .

قالوا له بلسان واحد .. من سيصعبه ومن
سيتخلف - : يجزيك الله عنها أيها الشيخ الجليل بأكرم
وأوفى جزائه فما لقينا منك منذ جلسنا اليك الا
رحيق الود المصفى .. والا لباب العلم الخالص ،
فكيف لا نأسى على فراقك الوشيك ؟! قال لهم :
واننى لمقدر هذا لأبنائى ضارعاً الى الله فى علاه
أن يجعل منهم أفذاذاً يملأون ما حولهم علماً وفضلاً
ويكونون القدوة المحتذاة لكل مقتد يتعشق
الفضل والعلم المقرونين بالعمل فهل من سؤال لديكم
قبل أن أقوم من مجلسى هذا الى البيت فأتھياً
للسفر ؟ قال له مريد منهم : فانى لأود أن أسأل
شيخى عن القدرة والشهرة فلقد أعيانى حل
لغزهما المحير ، فهناك قدرة فائقة ما يرتاب أحد
فى أن صاحبها جدير باحتلال أرفع مكانة
والاستحواذ على أبعد صيت .. ولكننا نجده برغم

هذا مغموراً حتى ليحسبه الجاهل خاملاً وهو أبعد ما يكون عن الحمول .. فندهش لما نراه .. وتتضاعف دهشتنا حينما نرى الى جانبه آخر يحتل المكانة المرموقة ويتمتع بالصيت البعيد ويحظى بالشهرة المستفيضة وما هو من كل ذلك بمستحق فهو ضيق العطن ، سطحي الخبرة ، قليل العلم ولقد يكون الى جانب هذا سيء الخلق فظ الطباع .. وصاحبه منه على النقيض .. فما هو سر هذا .. وما تعليله عند شيخى؟! قال له الشيخ وهو يرى مريديه يصيخون السمع اليه باهتمام عظيم ويرتقبون اجابته بشوق متلهف : انك - يا بني - لتضع يدك على سر من أسرار هذا الكون العجيب وكأنى بك تتمثل قول القائل :

كم عالم عالم أعيت مذهبـه

وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا !

غير أنى أود أن أقول لك : ان الله في خلقه أسراراً قد تستخلق على أفهامنا القاصرة فما نفقه لها تفسيراً .. ولكن المؤمن المستسلم لقضاء الله وقدره

لن يستعصى عليه الحل ، فهو يعلم علم اليقين أنه
— سبحانه — لا يسأل عما يفعل .. ويعلم الى جانب
علمه هذا ان الله عادل الى أقصى حدود العدل . فما
يفعل شيئاً عبثاً ..

ان القادر المغمور واجد ولا شك فئة خاصة من
الناس تؤمن بقدرته وتعجب بها وتحلها واياه من
نفوسها مكاناً علياً .. وما عليها من تلك الشهرة
والمكانة .. ولا ذلك الصيت المدوي . فانها لتراها
أشبه بالفقاييع التى سرعان ما تتلاشى ولا تترك
وراءها الا الفراغ . وهى لا تحفل بها ولا بأولئك
المنخدعين بها من العامة .. وهى الى ذلك — تعرف
أنه سيأتى اليوم الذى تأخذ فيه هذه القدرة حقها
الأوفى من المكانة والاعتبار والذى تتوارى فيه
تلك الأضواء الكاذبة التى غمرت من لا يستحقها
وتتلاشى وتتقلص المكانة والتقدير وينفض الناس
من حول مخلوق هو أشبه بالتمثال منه بالانسان
الذى كرمه الله بالعقل والخلق والعلم .. وهناك
احساس خفي يحس به كلاهما . فأما الأول فهو

يعرف أنه قد نال ما لا يستحق وانه اذا لم يبادر الى شكر الله على نعمائه بالسماح والبذل والتواضع وانكار الذات . ونسبة الحق الى أهله .. فان الله سينزع منه هذه النعماء .. واذا لم ينتزعها منه – سبحانه – فى هذه الحياة الدنيا فانه سيحاسبه حساباً عليها يوم لقائه ..

وأما الثانى فانه يحس عكس احساس صاحبه ، فانه ليحس الطمأنينة والرضا عن النفس التى حباها الله – بهذه القدرة وان أحس بمرارة الغمط والحрман

ألا ترى – يا بني – انه توزيع عادل من الله . هنا القدرة المطيقة . وهنا الشهرة البراقة .. هناك غمط وحرمان .. وهنا رفد واغداق .. ولو انك خيرت صاحب هذه القدرة ما بينها وبين هذه الشهرة والمكانة مع الضعف والفراغ .. لما تردد لحظة واحدة فى اختيار حالته على سوئها الظاهر .

ثق – يا بني – أن العاقبة للمتقين . وان القدرة ستلقى حظها ان عاجلا وان أجلا .. وحتى أنها اذا

لم تلق هذا الحق فان لها من قدرتها ما يعزيها عن
الجهل المشين والعجز الفاضح يتستران بستار شفاف
لا يلبث أن تخترقه أعين الناس فاذا بالتقدير
ينقلب الى سخرية ، واذا بالمكانة تنحط في نفوسهم
الى أسفل درك ، واذا بصاحبهما بينهم كالدمية
التي يتلهى بها الأطفال ثم يجعلونها بعد ذلك
جذاذا - أما القدرة فلها الله ما أعز مكانها وأرفعه
وما أكرم صاحبها وأعلاه .. « نحن قسمنا بينهم
معيشتهم » . هذا ما يقوله لنا الله فيجب علينا أن
نرضى كل الرضا بهذه القسمة العادلة ، وان نعرف
أن مقابل كل عطاء حرماناً ، ومقابل كل حرمان
عطاء . ولقد يكون الحرمان أحياناً أحفل بالعطاء
وأجدى على المرء من كل اغداق مادي زائل - ذلك
لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

وأجال الشيخ نظره بين مريديه ، فاذا بمريد
يتحفظ للكلام فشجعه عليه بايماءة باسمه .. قال
المريد : انى لأرجو من شيخى أن يدخل السكينة الى
نفسى بجواب شاف على سؤال يعتلج بها فما تهتدى

الى جواب يدخل عليها هذه السكينة .. قال الشيخ :
فما هو سؤالك - يا بني - قال : اننى لأسمع لفظاً
شديداً ونقاشاً محتدماً بين الكثير من الناس حول
الدين والعلم .. يقول بعضهم : ان العلم هو كل شيء
ما دام هو وحي العقل المتسلح بالمنطق والبرهان ،
ومن واجبتنا - اذا كنا نحترم عقولنا - ان نهتدى
بهديه وأن نرفض ما عداه من عالم الغيبيات التى
لا يقوم عليها دليل .. ويقول البعض الآخر : ان
الدين هو كل شيء مادام هو من عند الله .. وان
العقل مهما اتسعت آفاقه عاجز أتم العجز هو
وجنينه العلم ، عن أن يقيم الدليل على كل شيء
مما يقع تحت حواسنا أو مما لا يقع .. مادام هو
خلقاً من خلق الله .. والا لتطاول الى مقام الالوهية
وحسب أنه قادر على كل شيء وهيئات .. ان الله
وحده هو الذى يحيط علمه بكل شيء وسواء استطاع
العلم البشري أن يفسر ويعلل أو لم يستطع ..
وما علينا نحن عباد الله المؤمنين الا أن ندعن لله
ونسلم له .. ولسوف يكشف لنا الايمان مالم
يستطع العلم أن يكشفه .. ان العلم يأتينا اليوم

بآية من آياته يهمل لها ويبشر بها ويضعها في مرتبة اليقين الذى لا يتطرق اليه الشك ثم يأتى الغد فاذا بهذه الآية تنهار من قواعدها ويبرهن العلم نفسه على فسادها ويقيم آية أخرى مكانها ما تلبث هى الأخرى أن تتهدم على يد العلم نفسه ، وتتبدد كما يتبدد الدخان فى الهواء .

وصدق الله حين يقول لنا فى محكم تنزيله :
« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

واستمر المريد فى حديثه فقال لشيخه : واننى لحائر متخبط فى هذه اللجج أود النجاة منها بالسكينة التى أرجوها والتى تطمئن اليها نفسى ، وليس كمثلى شيخى من يتفضل علي بها ..

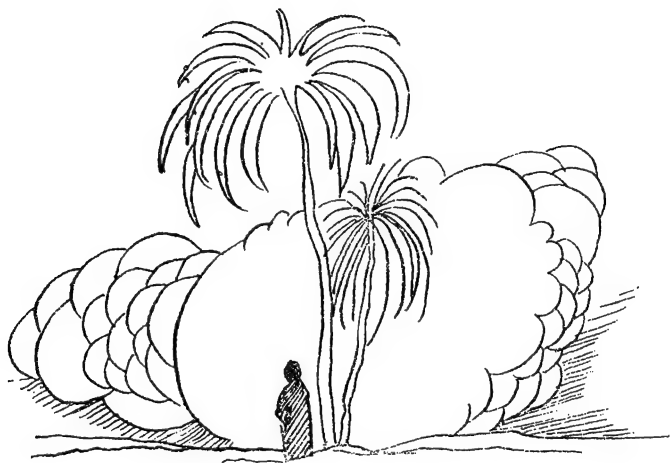
قال له الشيخ : لا ترع - يا بني - فما أعظم الفارق بين الدين والعلم . وانه لعظيم عظيم - فالدين من عند الله . والعلم من صنع البشر ، وهو ينبع من العقل الذى هو من صنع الله واحدى آياته . فكيف يتسنى لنا ان نقارن بينهما ؟! لئن

نحن فعلنا ذلك فلقد افترينا على الحق افتراء
كبيراً . ولقد ظلمنا أنفسنا ظلماً كثيراً ..

ان من يتجاسر على مثل هذه المقارنة فانه لغبي
أحمق .. وهو - الى ذلك - جاحد كفور .. لقد قال
أحد كبار الملاحدة وقد بهرته آيات الله .. قال : لو
لم يكن لنا اله لوجب علينا أن نخلقه - فهذا الذى
نشهده - بحواسنا هذه المحدودة الضعيفة فنقف
أمامه خاشعين .. وهذا الكائن البشري الذى قد
يدفعه غروره وبطره الى الكفر ، لو أنه تبصر فيما
حوله وتبصر فى نفسه لعرف أن هناك قوة علوية
هى التى ابتدعت هذا النظام المعجز وهذا الخلق
الذى حير الألباب بما فى كل جارحة من جوارحه
من آيات بينات : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » !؟

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى
يتبين لهم أنه الحق » . هذا ما يقوله القرآن لأولئك
المساكين مندداً ، ومتحدياً . لقد تحداهم فى كل
الأزمنة والأجيال بأن يخلقوا ذباباً ، وهو من أضعف
مخلوقاته سبحانه .. ثم تحداهم بما هو أقل من الخلق

والابداع .. تحداهم بأن يستنقذوا ما يسلبهم
الذباب ، فلم يستطيعوا أمام هذا التحدى حولا ولا
طولا ، وأنى لهم أن يستطيعوا ، وهم خلق من خلق
الله .. وكل علومهم وكشوفهم ومخترعاتهم ان هي
الا برهان على وجوده وعلى عظمته .. وان هي الا
قطرة تافهة من محيط عظيم عظيم لا يسبر غوره
ولا يحد مداه .. ولئن كان للعلم من فضل فهو انه
يدل - ان هو تعمق وتبصر - على الايمان ، والايمان
يدل على الله . ولقد آمن به - سبحانه - كثير من
العلماء المنصفين حينما بدت لهم آياته واضحة جليلة
فاستنارت بصائرهم بعد اظلام وقالوا آمنا به وقد
كنا له منكرين .. كلمة واحدة أريد أن أقولها
لهؤلاء البسطاء ، أو هؤلاء المكابرين ، هل الانسان
هو الذى خلق نفسه أم ان له خالقاً؟! وهل تستطيع
سنة النشوء والارتقاء التى عنها يتحدثون وبها
يفيضون وان هي الا اكدوبة كبرى وافتراء على
الله ، هل تستطيع هذه السنة أن تجعل من القرد
هذا الانسان المدرك المبدع؟! أم أن الطبيعة التى
يتزعمونها هى التى خلقتهم بادىء بدء ثم ما زالت



بهم تطورهم حتى وصلت بهم الى هذا المستوى
الرفيع؟! وماهى هذه الطبيعة؟ ما كنهها؟
ما بدؤها وانتهائها؟ ما مدى قدرتها وسيطرتها
على هذا الكون كله؟ انهم لا يحIRON جواباً على
مثل هذه الأسئلة ولكنهم يكابرون ، أم يريدون أن
يقولوا لنا انهم خلقوا من غير شيء كما قال لهم
سبحانه ، أم هم الخالقون ، وخابوا وخسروا فلن
يستطيعوا مثل هذا القول والا وسموا بالجنون
والخسران المبين ، لو ان العقل ، لو ان العلم ،
استطاعا أن يحيطا بكل شيء فى هذا الوجود ، وان
يسيطرا عليه ويطوعانه لوصلا الى مرتبة الالوهية
وهيهات .. اذن فالفارق بين الدين والعلم هو
فارق جوهرى لأن الأول من عند الله ، والثانى من
عند الانسان ، والأول خالق قدير ، والثانى مخلوق
عاجز . لقد أعطانا الله العقل لنميز به الرشد من
الغنى والخطأ من الصواب . فمن العبث بهذا العقل
أن نجعله مطية للأوهام الخادعة ، وأن نظن
به انه على كل شيء قدير .. هو رحمة بنا من عند
الله .. فكيف نحيله الى نقمة علينا يخرجنا من

الايمان الى الكفر.. ويشتط حتى يضع كيانه الحقير
موضع خالقه ومانحه القدرة والنور!؟

وأطرق المریدون برؤوسهم وهم یسمعون
لشیخهم متدفقاً تدفق البحر بالأدلة الدامغة والبراهین
الساطعة.. وما كانوا قط ، وهم تلامذته أن یشکوا
لحظة واحدة فی أن الله هو خالق هذه الكائنات كلها
وهو المسيطر علیها .. وهو القادر أن یبیدها
ویأتی بخلق جدید سواها .. ولكنهم كانوا یریدون
أن یصلوا الى الايمان الراسخ بالمنطق والبرهان
كما وصلوا الیه بالبديهة والطبع .

وتهیأ الشیخ للقیام ، فقد آن له أن یأخذ الأهبة
هو ومریدوه لرحلته هذه التی یتطلع ویتطلعون
الیها بشغف ولهفة .. لولا أن مریداً التمسه بضع
دقائق تكفی لسؤال وجواب وما كان الشیخ لیرد
ملتمساً لأحد مریدیہ حتی ولو عاقه تحقیق هذا
الملتمس قليلا عما كان یتهیأ له ویود لو أنه بادر
الیه .. قال له : هات ما عندك — یا بني — ولعلك

أن تسرع به فلقد أصبحت ما أملك من أمر نفسي
الا القليل وقد هاجنى الشوق للرحيل ..

قال المريد : فاننى أتوق الى أن أسمع من شيخى
رأيه الحكيم فى قواعد الحكم الرشيد .. اننى منذ
قرأت لأفلاطون مدينته الفاضلة .. ثم قرأت عن
كرامة الحكم الاسلامي فى عصوره الأولى ..
وما تلاها من عصور متفرقة يتمخض عنها الزمن
بين فترة وأخرى فيرى العالم فيها أروع أشكال
الحكم وأرشدّها وأدعاها الى الرضا والاطمئنان
والانضواء تحت لوائها حتى من أولئك الذين
لا يدينون بدين الاسلام من أولى الذمة .. منذ قرأت
كل هذا وأنا لا أكاد أثبت على رأي جازم في أيها
أرشد وأمثل وان كنت أرى فى قواعد الحكم
الاسلامي أقوى القواعد وأرسخها ، وأحفلها بالمكارم
والمآثر ، قال له الشيخ ، وهو يستأنى فى كلامه
وكأنه يختار كل لفظة تلفظها شفثاه : لقد أحسنت
يا بني ، فيما أرتأيت فى قواعد الحكم الاسلامي ،
فاطمأنت نفسك اليه ، ان قواعد الحكم

الرشيـد لا تقوم الا على أرض صلبة من المحبة
والوئام والتفاهم والشعور المشترك ما بين القمة
وقواعدها ، فالقمة هى بمثابة الرأس المفكرة تقوم
على كيان متين فيكمل أحدهما الآخر ولا يستغنى
عنه بحال .. ولم يـقم الحكم الاسلامي فى أزهى
عصوره الا على هذه القواعد التى ما حاول أن
يزعزعها الا ظالم قد تنهار عليه فتودى به .. لم
يـقم الحكم الاسلامي قط على الارهاب ولا على الخوف
ولا على الرياء والزلفى ، وانما هو محبة ووئام
وتفاهم وشعور مشترك كما أسلفت . وما شذ عن
هذا الطريق السوي الا من انحرف عن أحكام
الشريعة الاسلامية وأراد استبدالها بقوانين وضعية
مستوردة وارغام الناس عليها ارغاماً ، فكانت
عاقبته أسوأ عاقبة ولم يجن الناس له فى صدورهم
الا الكراهية والمقت حتى ينقذهم الله منه ..

على اننا نحمد الله على اننا فى بلدنا هذا الأقدس
نضرب الأمثال للناس بالتمسك بشريعة الاسلام
وبقواعده وقوانينه وقيمه ومثله ومبادئه

وتقاليده فيغبطنا الكثير منهم ممن لم يتمتعوا بمثل ما نحن فيه من رخاء وبلهنية عيش وسعادة وأمن واطمئنان وتلاحم وثيق ما بين القمة والقاعدة ، على أنهم يستمتعون عما قريب بهذا فاننى لأبصر نور الاسلام يغزو الممالك والأمصار فيبدد الضباب والظلمات ولن يلبث هذا النور أن يعم العالم كله ان شاء الله .

ثم استوى الشيخ واقفاً فوقف مريدوه لوقوفه وانصرف راشداً بعد أن ودع المقيمين واصطحب رفاق الرحلة ●●●



الكتاب العربي السعودي

صدر منها :

- الجبل الذي صار سهلاً أحمد قنديل
- من ذكريات مُسافر محمد عرتوفيق
- عهد الصبا في البادية د. عزيز ضياد
- التَّمِيَّة .. قضيتة د. محمود محمد سفر
- قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا د. سليمان بن محمد الغنام
- التوسعية في الجزيرة العربية والسودان واليونان وسُوريا
- الظَّلمة عبد الله عبد الرحمن جفري
- يصعد رقبياً :
- موضوعات اقتصادية معاصرة د. علي بن طلال الجعفي
- غداً أنسى د. أمل محمد شطا
- إلى ابنتي شيرين الأستاذة حمزة شحاتة
- أزمتة الطاقة .. إلى أين ؟ د. عبد العزيز حسين الصريح

تباع بمكتبات ومراكز توزيع تهامة

مكتشفون ورجال الأعمال

يشقون في التعامل معنا



فكن مع الواقفين

دار ثقيف للنشر والتأليف

٢٠٨٩١ ت

الطائف



الكاتب بقلمه ..

وُلدت ببلدة بركة في آخر شهر ذي القعدة ١٣٤٥ هـ في يوم ١٧ من شهر
الشهر. هاجرت الأسرة كلها إلى جدة لسوء الحال في اليمن - فادخلوني
وأنادوا بالرجل من اليمن إلى المجتمع لا حضورنا مع مدرسة فلما جده أو التحضيري لا. وخرجت
منه إلى المدرسة واستمرت دراستي إلى نهاية السنة الثانية... ولما عاد هو إلى مصر رحلته عندي إلى
مكة والتحق بمدرسة المعلمين بها ثم خرجت منها وتحت إقامته الأستاذ الأستاذ العرياني وأصبح
رئيساً فيها. وكنت وأنا بالمدرسة أكتب بحرية صوت الحمار كتاباً ناشئاً - ثم رأيت تحريها
لفترة قصيرة استقلت بعدها إلى العمل بوزارة المالية حتى أصبحت مديراً عاماً لا - ثم انتقلت إلى
الرياض سفيراً للملك في وزارة المرحوم الملك سعود. والسرير المرحوم الملك فيصل. ولدت منه
هناك لا عمل بنا. على أمر المرحوم الملك فيصل نائباً للرئيس ديواناً إدارية فيه تأييد الذي شأنت
فيه. ثم استقلت بعد عدة سنوات لا تقرب إلى العمل الخاصة والتجربة كأول مدير في المؤسسة
البلاد ثم استقلت لا سبب صحي. ثم تقطعت معي أختي هبة عبد الله آل الشيخ وزير التعليم
والشرف العام على المدرسة الأميرية فزعمت كنت للملك والمدرسة على تكريمها بالحظيرة الأميرية
هذه فإذ صرنا موزعة لم نجد حياتي... ولا يظهر مني في ترجمة عادلة لشخصي عادي

صنعت قلمه